لعبة كرة القدم طريق إلى الدنيا والدين

هاني درويش

تزامنت بدايات معظم دوريات كرة القدم الأوروبية مع بداية شهر رمضان. ورغم أن لا جديد في لعب المئات من اللاعبين المسلمين في مثل تلك المنافسات، إلا أن الجدل بشأن صومهم اتسع ليشمل مختلف الملاعب. الأمر جديد بالفعل، فمنذ سنوات وصوم اللاعبين المسلمين خبر عادي لا يستأهل كل هذا الإهتمام، إلا أن النزوع الأخير لإكتشاف الإسلام والمسلمين أعاد الأمر إلى واجهة الأحداث.

الأمر لا يقف عند حدود «إعادة إكتشاف المسلمين وعاداتهم». هناك مايشبه التعمد من قبل هؤلاء اللاعبين علي إدخال الهوية الدينية كجزء من أشكال تمايزهم. ففي غالب الأحوال لاتشير أسماء مثل إريك أبيدال أو سيدو كيتا في برشلونة إلى هوية اللاعبين الدينية، كما لم تشر ممارستهما الإنفعالية الدارجة خلال ممارسة اللعبة (مثل السجود الشائع أو رفع شارة التوحيد) إلى إنتمائهما للإسلام. وحتى حين حل الجدل بشأن شعار الفريق الكتالوني الذي يحتوي الصليب الشهير (وهو الصليب المسؤول عن منع بيع قمصان الفريق في معظم دول الخليج!) كان ردهما أقرب إلى التفريق الدقيق بين الشعار كمعنى ديني مباشر وبين معناه كهوية ثقافية للكتالونيين. وحالة فريق برشلونة وشعاره لو طبقت على مجمل شعارات الأندية الأوروبية لما صح لعب أي لاعب مسلم في تلك الأندية. فشعارات تلك الأندية غالبا ما تحتوي على ترميز بدائي هوياتي غالبا ما يرتبط بالهوية المسيحية الأوروبية، ذلك الترميز الذي لا ينفك عن مفهوم الراية الحروبية القديمة والتي تستمد ثقافة كرة القدم الحديثة فلسفتها منها.

جوزيه مورينيو المدير الفني المشاغب والصدامي لفريق الإنترميلان كاد أن يسقط في فخ العداء للإسلام. ونظرة سريعة على منتديات الكرة العربية التي علقت على تصريحه الخاص بخسارة وسط ملعبه مونتاري بسبب الصيام في أول لقاءات الكالتشو تظهر مدى الوقوف على الأظافر الذي بات يمثل رد فعل الجاليات الإسلامية في أوروبا. رئيس اتحاد الجاليات المسلمة في ايطاليا أزبد وتعرق وهو يهدد مورينيو بعذاب النار. الأخير، وبذكاء غير معهود، فوت الفرصة على مهاويس الفتن الجوالة حين أكد في تصريح إحترامه للإسلام وشعائره، وإن لم يخف حجم خسائر الفريق بالفعل بسبب غياب مونتاري.

في القاهرة التي تشهد تألق الربط بين الإسلام وكرة القدم، وحيث يشكل اللاعب المؤمن الخلوق محمد أبوتريكة - علي حد وصف وسائل الإعلام له - ظاهرة شعبية مثيرة، صرح سمير زاهر رئيس الإتحاد المصري لكرة القدم أن إفطار اللاعبين خلال لقاء بروندي القادم والمصيري إجباري. إستخرج زاهر رخصة بفتوي أزهرية تتيح لمن هم على سفر أو في سبيل أداء عمل شاق الإفطار.

قرار رئيس الإتحاد المصري ربما يصطدم بصورة «منتخب الساجدين» الشهيرة التي باتت تظلل وتميز منتخب مصر الوطني في اعوامه الأخيرة. المفارقة ستنتج بلا شك مشهدا مسرحيا ربما يطيح بسمعة رجل كرة القدم القوي في مصر، الجماهير المصرية المؤمنة بقدرة الربط بين «توفيق اللاعبين» ومسيرتهم المظفرة تجد نفسها في حرج أمام طبيعة الصراع بين الإفطار الذي يقرب حلمهم للصعود الى مونديال جنوب إفريقيا (مهمة مادية برجماتية صرفة) وبين صوم اللاعبين الذي «يبارك» مجهودهم القتالي ومهمتهم الوطنية. المأزق مزدوج في حالة محمد أبوتريكة اللاعب الداعية الذي سيجد نفسه في بؤرة

الأحداث وقد انتظر محبوه تمرده على هذا القرار الرئاسي البرغماتي. اما موقعة بورندي نفسها يوم ٩ سبتمبر/ أيلول الجاري فهي محك صعب. فإذا إنتصر اللاعبون سيبقي إنتصارهم عرضة للتشكيك بجدوى المكسب أمام خسارتهم لنقائهم الروحي ، وإن هزموا فالثورة قادمة لا محالة بعد خسارة الدنيا والدين معا!

المتوقع أن يكسر اللاعبون القرار بصوم سري يصلح لجني المكاسب في حالة الفوز ولتبرئة النفس في حالة الخسارة. حجة رئيس الإتحاد تتمحور حول تعنت الجانب البورندي الذي أصر على تعديل موعد المبارة لتصبح نهارا في قيظ وسط إفريقيا اللاهب، هذه الحجة تبلسم قليلا وتناغش روح التحدي ببعض من بهارات المؤامرة على اللاعبين ومن ثم على الإسلام.

كان طارق يحيى المدير الفني لفريق الإتصالات الذي يلعب بالدوري الممتاز الأول قد أبدى إستياءه من خوض فريقه لمباريات الدوري خلال رمضان. وعلي الرغم من خوض كل المباريات في مواعيد مابعد الإفطار إلا أن المدير الفني تعلل بأن «روحانية الشهر الكريم لا تتناسب مع أجواء السفر والإنتقالات بين المدن المصرية للعب كرة القدم»! وقد تزامن ذلك مع غياب معظم اللاعبين المصريين المحترفين عن مباريات فرقهم المقامة نهارا في أوروبا، بل وتصميم بعضهم على رهن مسيرتهم الإحترافية كلها بموقفهم من الصيام.

الصوم وكرة القدم كعنوان صحافي فاقع أصبح جزءا من مجال الشحن الجماهيري، فعلي المنتديات الكروية يلاحظ في تعليقات القراء ذلك الهوس بالتمييز بين اللاعبين على أساس ديني. فعلى الرغم من قيام فلسفة كرة القدم على ظاهرة مابعد دينية بامتياز تتعلق برايات وشارات الفرق وظهور فكرة الدولة والإقليم الحداثية منذ مطلع القرن الماضي، إلا أن الفاصل الدقيق بين تشجيع ناد والتحزب لديانة بعض اللاعبين آخذ في الإضطراد. وفي المواجهات الكبري مثلا بين مانشيستر يونايتد وبرشلونة في نهائي دوري أبطال أوروبا العام الماضي كانت تعليقات بعض القراء على المواقع الرياضية العربية تميل الى إحتساب المواجهة لابين فريقين يتقارعان بكرة مستديرة ولكن بين عناصر مسلمة هنا وهناك. الخلط العمدي يصل أحيانا الى مستوي تشجيع فريق لمجرد وجود شبهة إسلام في إسم أحد لاعبيه.

ينقل موقع في الجول المصري يوم الإثنين ٣١ أغسطس/ آب الماضي خبرا مصحوبا بصورة مفاده التالي:» أكد محمد زيدان أنه استعاد ذاكرة التهديف مع بروسيا دورتموند الألماني بعدما استعاد علاقته الجيدة بصديقته الدنماركية شتينا والتي وصفها بحبه الأول».

وقال زيدان في تصريحات لصحيفة «بيلد» الألمانية إن تركيزه في الوقت الحالي أصبح منصباً فقط على كرة القدم بعدما حلّ جميع مشاكله الشخصية. وأشار زيدان أنه بعد انفصال دام ثلاثة أشهر مع شتينا عادت العلاقة بينهما مرة أخرى لتنتهي مشاكله الشخصية.

وكان زيدان قد أعلن خطوبته على الفنانة مي عز الدين، ولكن الخطوبة لم تستمر سوى ثلاثة أشهر فقط قبل أن يعلنا فسخ الخطوبة. وأرجع متابعون تغيب زيدان عن الانضمام إلى معسكر منتخب مصر استعدادا لمباراة رواندا إلى «حالته النفسية السيئة» بسبب توتر علاقته بالممثلة المصرية.

وأضاف زيدان أنه سيترك الفيلا التي يقيم فيها في الوقت الحالي وأنه سيقوم بشراء شقة صغيرة وسط مدينة دورتموند ليقيم فيها مع صديقته».

الى هنا ينتهي الخبر الذي يأتي بعد أيام من إستبعاد المهاجم المصري الشاب من قائمة المنتخب المصري قبل موقعة بورندي الفاصلة في ظل ما اعتبره إداريو المنتخب تعللا كاذبا بالإصابة. وقد جاءت التعليقات التي انهالت على الموقع على الشاكلة التالية. يقول مشارك بإسم فرانشيسكو توتي: «هو لما يجيب جون فى ماتش يبقى كدة استعاد ذاكرة التهديف يا راجل حرام عليك انت مسلم وعربي ما شوفتش كانوتية وسيدو كيتا وسولى عمر مونتارى ومامادو ديارا ويايا تورية اللى افارقة بس مسلمين بيعملوا اية فى رمضان يكفي اقولك ان كانوتية دة بيتبرع بجزء كبير من دخله السنوي لبناء وتعمير المساجد فى اسبانيا وانت رايح تعيش مع واحدة من غير جواز وفي رمضان في شقة واحدة.

اتق الله يا شيخ والله دي اخلاق زيدان من زمان بس كنت بكدب نفسى انا متأكد دلوقتى انك اصلا ما تعرفش ان فية شهر للمسلمين اسمة رمضان»، بينما يقول معلق آخر يظهر بإسم ديث لافر:» يا اخي ده انت اسمك محمد يعني دنماركية وسكتنا وكافرة وسكتنا وماشية على حل شعرها زي ما في الصورة وسكتنا. (انما ايه هتاخد شقة عشان تعيش فيها مع صديقتك؟؟) اخوات يعني حسبي الله ونعم الوكيل انت تستحق غضب ربنا وغضب الناس دي وفعلا واحد زيك لو رجع المنتخب اتمنى ان مصر تخسر اياً كانت اهمية المباراة اللى انت فيها.. حسبي الله ونعم الوكيل» التعليقات السابقة هي الأكثر تهذباً في ما نشر والأقل إيرادا لآيات قرآنية تم إجتلابها للحديث إما عن رمضان أو عن أخلاق المجاهرين بالشرك، وهي تضع ظاهرة «تسلفن» (من سلفية) جماهير كرة القدم في اقصى تجلياتها إثارة .

يبدو تغوّل الظاهرة السلفية بين لاعبي ومشجعي كرة القدم إنسحابا طبيعيا لما إعترى مفهوم الجماهير نفسه من تحولات إجتماعية سياسية. لكن التناقض الأساسي يأتي من موقع أن ممارسة الرياضة في قلب الثقافة الشعبوية الإسلامية هي في الأساس - ووفقا للترجيحات الفقهية - مجال للإعداد لمواجهة الأعداء. السباحة والرماية وركوب الخيل في الحديث النبوي وتفسيراته تركز على الجانب النفعي المباشر لصحة المسلم، فيما كرة القدم التي تدار في عوالمها الحقيقية إقتصاديات مليلرية ضخمة وترتبط بكارتيلات إعلامية وإعلانية مهولة تصب أنشطتها في الغالب - في التحليل الإسلامي - في قلب أنشطة محرمة دينياً. هذا بالإضافة الى ما يعتري المشجع من تجزئة ولائه الشخصي وتحويله خارج رؤية المنفعة العضوية للرياضة. كرة القدم اقرب الى نشاط ترفيهي معولم لايعترف إلا بالفوز هوية، تشحب فيها ظلال الهوية القومية لصالح شركات الأندية العابرة للجنسيات والأديان. الدخول السلفي على نشاط بمثل هذه الجماهيرية الطاغية هو محاولة برجماتية لصبغ ماهو مادي فطري حداثي بألوان التدين، جزء هام من تجاوز الإيدلوجية السلفية لـ«لهو» كرة القدم الأصيل وفقا للرؤية الدينية نابع من عدم قدرة تلك الإيديولوجيا على مناصبة العداء لظاهرة نجاح ما في أي مجال من مجالات الحياة المدنية. تأميم فكرة النجاح الشخصي لصالح مبررات دينية هو جسر التواصل مع أحلام النجاح بمفاهيم الحداثة الجديدة. بذلك تندمج فانلة المشجع في غطاء أسلمة نواحي الحياة. وغير بعيد عن ذلك الصورة النمطية لتصميم مدربي فرق الناشئين في الأندية المصرية على إختتام التدريبات اليومية بصلاة جماعية، وتزامن التدريب مع مواقيت الصلاة. البنيان المرصوص لفريق مقاتل أنهي إستعداده لمباراة بصلاة تجمع الروح هو غاية نشاط كرة القدم القائمة على مقارعة خصم في ميدان المعركة.

الديموقراطية العددية في حالتنا
ص ١٠

تاريخ فلسطين وجغرافيتها
ص ١١

السياسة ودراما رمضان
ص ١٢

على أبواب انتخابات العراق
ص ١٣

آرام تيغران.. البلبل الأرمني
ص ١٤

لمناسبة السفر الأوّل بالطائرة: أيّام ما كانت المتعة مساوية للخطر

حسن داوود

لم أكن أعلم، في أوّل ركوب لي بالطائرة، أنّه لم يكن قد مضى وقت طويل على إتاحة الطيران لمن هم مثلي. وكالة البي.بي.سي، في تغطيتها، بالصور، التي أرسلها لي صديقي حازم على الانترنيت، لمناسبة الإعداد للذكرى التسعين لأوّل رحلة طيران تجاريّة، ذكرت أنّه فقط في مطلع الستينات بات ممكنا ركوب الطائرة لغير الأثرياء، حيث، منذ ذلك التاريخ، صار الكلام عن السفر بالسفن يُقرأ في الكتب فقط، أو يُروى شفاها مشدّدا على ما تكبّده المهاجرون السابقون من مخاطر وأهوال. كانت شركات الطيران آنذاك قد صنّفت مقاعدها مسميّة ما نقدر عليه باسم الدرجة السياحيّة، أو الإقتصاديّة. سنة ١٩٦٩ صعدت إلى طائرة 'طيران الشرق الأوسط- الخطوط الجوّية اللبنانيّة' من الخلف، أي من الذيل أو من أسفل البطن. على الدرجات كنت متهيّبا خائفا لظنّي أنّ الطائرة، بالنظر إلى تحليقها المرتفع وغير المفهوم عن الأرض، سيشغلها الخطر الأكيد عن أن ترتّب داخلها وتزيّنه. أقرب صورة توقّعتها لما ستكون عليه هي الصورة الثانية (التي تعود إلى العام ١٩٢٠) في سلسلة الصور الثماني التي قدّمت فيها الوكالة التاريخ الموجز للطيران المدني. وهي بالأسود والأبيض، اللون المناسب آنذاك لمخيّلتي الخائفة. كما ظننت ذلك الداخل كالحا وضيّقا فوق ذلك، وتغلب على محتوياته أدوات النجاة مثل المظلاّت وإطارات الإنقاذ والحبال، بل وربما الخوَذ التي كنت أشاهدها في الأفلام على رؤوس طيّاري الحرب العالميّة الثانية.

وكان مفاجئا أن أرى المضيفة هناك، عند المدخل، ترحبّ بالركاب هادئة ومبتسمة. كانت إنكليزيّة، وبلغتها راحت تحيّي الداخلين واحدا بعد واحد، ترافقها في ذلك موسيقى مطَمئنة كانت تنبعث خفيفة من أمكنة بثّ غير مرئيّة. وإذ توقّفت الموسيقى بعد ذلك، ظلّت المضيفة الإنكليزيّة على ابتسامها. قالت لي فيما هي تقترب مني إلى درجة الإنحناء بأن أربط الحزام، مشيرة إليه بنظرها وإصبعها معا. وبإنكليزيّتي التي ربما كنت قد أدخلتها لأوّل مرّة حيّز الإستعمال (خارج الدرس والمدرسة أقصد) إنّي أريد علبة مارلبورو. 'الآن' قالت، وكانت الطائرة ما زالت رابضة في مكانها لم تُقلع. وكانت تلك فرصة ثانية لأستعمل إنكليزيّتي في ذلك العمر المبكّر (كنت آنذاك في التاسعة عشرة)، قلت: لأنّ أبي ظلّ معي في المطار وأنا لا أدخّن أمامه.

ذلك الإبتسام الفائض والتكلم من ذلك القرب الموحي بوشك الملامسة لم يشمل ثمن علبة التبغ التي دفعتها للمضيفة نقدا. وقد ظلّت المضيفة على ابتسامها الجميل فيما هي تقبض تلك النقود التي كان أحرى بأصحاب الطائرة أن يغفلوا عنها لقلّتها. لكنّني قلت إنهم ربما كانوا يقصدون شيئا من وراء ذلك، وهو إشعار المسافرين بالطمأنينة حيث أنّ الأمور تجري هنا مثلما تجري في الدكاكين، وهذه علامة أخرى على أنّ سقوط الطائرة بعيد الإحتمال.

وأحسب الآن، بعد انقضاء كلّ هذه السنوات، أن كلّ ما تقوم به شركات الطيران في إعلاناتها مصدره التأكيد على طمأنة المسافرين بأنّ الطائرة لن تقع. من ذلك الإعلان الذي يصوّر المضيفة حاملة صينيّة مملوءة بالأطايب المزيّنة، ومنه أيضا تصوير المسافر نائما ومبتسما في غفوته، ومنه تلك الشبكة العريضة، المتسمة بالفخامة والأناقة كلّها، ابتداء من ألبسة المضيفات والطيّارين وصولا إلى المكاتب التي تقصد الشركات أن تجعلها في أكثر البنايات جدّة وحداثة. (لم يكن الحال كذلك في سنة ١٩٢٠، يوم أقلعتَ أولّ طائرة حاملة ركابا بالأجرة، إذ لم يكن هناك إعلانات ولا مكاتب سفر ولا مضيفات، فقط رجل واقف إلى جانب الطائرة يقبض النقود بالطريقة ذاتها التي لمعاون سائق البوسطة قبل سنوات قليلة من أيّامنا هذه... وهذا ما تُظهره الصورة الأولى في سلسلة الصور الثماني المذكور عنها أعلاه، جاعلة المسافرين الأوَل أولئك مغامرين بحقّ، إذ لا شيء يطَمْئِن بأنّ الطائرة التي سترتفع إلى السماء هكذا، وسط قلّة التدبير هذه، لن تعود سريعا إلى الأرض لتتحطّم وتحطّم من هم فيها).

كانت تلك أوّل رحلة تحمل ركّابا. طبعا ليس هناك من مضيفة، ولا حتى مضيف (إذ سيكون على المسافرين أن ينتظروا حلول الحقبة الثانية، والتي تمثّلها الصورة الثانية في سلسلة الثماني، ليحصلوا على مضيف ذكر، وقصير القامة أيضا، بحسب ما يذكر التعليق المرفق بها)، ولا حتّى موسيقى خفيفة، ولا قناني ويسكي وسواها على ذلك الرفّ الذي تظهره الصور في مؤخّر الطائرة. فقط الطيّار، ذلك الذي، بسبب صغر الطائرة، سيكون قريبا من الركاب، هناك على المقعد الأمامي، مقدّما رأسه إلى الأمام فيما هو يسوق الطائرة، على نحو ما يكون حال من يسوق سيّارة بسرعة جنونيّة.

وفي رحلتي تلك في ١٩٦٩، بل وفي رحلات لي تلتها، متقطّعة ومتباعدة، لم يحدث أن كان بين الركاب أطفال إذ لا أذكر أنّي رأيت ولدا يلهو في الممرّ الضيّق بين المقاعد أو ولدا يبكي من أمامي أو من خلفي. رجال فقط، قليلون قلما امتلأت بهم، وبالنساء الأكثر قلّة منهم، الطائرة عن آخرها. ذلك أنّ السفر، حتى سنة ١٩٦٩ كان ما زال حكرا على من يقدرون عليه، ليس عندنا بل في البلاد التي اخترعت الطائرات، تلك التي سنتأخّر عن عاداتها بالطبع. أقصد أن السفر بالطائرة كان حلما لأولئك الكثيرين الذين، في تلك الأعوام، كانوا يحاولون الإقتراب من تحقيقه قدر المستطاع وذلك بالتنزّه في أيّام الآحاد، ذهابا وإيابا، على طريق المطار.

لم يكن هناك أولاد في الطائرة. في بريطانيا، وفي أميركا أيضا، كان على الأولاد أن ينتظروا أوّل سنوات السبعين حتّى يصعدوا، مع لعبهم، إلى الطائرات(بحسب الصورة المثبتة هنا، وهي الخامسة في سياق الصور الثماني) وذلك بعد أن تضخّمت الشركات إلى حدّ أن بدأت باختراع رحلات السياحة المنظّمة، للعائلات وسواها. وبلا ريب، كان من شأن هذه الخطوة أن تقلّل من 'متعة السفر بالطائرة' ومن الإحساس بالتميّز الذي لم تتوقّف شركات الطيران، حتّى الآن من تسويقه وإشاعته.

أي أنّ السفر بات خليطا من الصبر على الإحتمال والرفاهيّة، بعدما كان خليطا من الأخيرة والخطر أو المجازفة. أمّا الآن، ومنذ أن ابتدأت جولة هجراتنا الثانية، التي أعقبت هجرتنا الأولى في أواخر القرن التاسع عشر، فلم يعد أحد يعتدّ أمام أحد بكونه عائدا من سفره أو متهيّئا له. أولئك الذين هم على متن الطائرة باتوا هم ذاتهم لا يختلفون في شيء عن أولئك الذين ينتظرونهم في المطار، مستقبلين أو مودّعين. وهؤلاء الأخيرون، بدورهم، لا يختلفون عن أولئك الذين في زحمة الشارع متسابقين، مشاةً، وسائقي سيّارات، وراكبي درّاجات لم تعرف الدولة ماذا تفعل بهم بعد.

وفي السفرة الأخيرة لي كان اعتيادهم على ركوب الطائرة قد بلغ أشدّه. كانوا جالسين على رؤوس الكراسي لا على قعداتها. وهم، من أماكنهم المتفرّقة صاروا يكلّمون بعضهم بعضا بأصوات عالية، بل ويتراسلون بالطعام، مبادلين ما لا يحبّونه منه بما يحبّونه، من فوق الكراسي. أما ذاك الذي أحضر معه قنّينته، بحجّة أنّ المضيفة لن تلبّي كلّ حاجته للشراب، فسكر وجعل يشدّ القنّينة شدّا من يد المضيفة المغربيّة. 'لحظةَ هبوطنا سأسلّمه إلى البوليس'، قالت بعد أن انتصر له أصحابه بالهرج والمرج.

● الصورة الأولى: ١٩٢٠

● الصورة الثانية: الأربعينات

● الصورة الثالثة: مطلع السبعينات